الحركة الصوفية إبان العهد العثماني في الجزائر*

أ. سليمان عناني

سادتي الفضلاء، سيداتي الفواضل

تحية طيبة وبعد، فلأمر ما تعمدت تصدير هذه المداخلة المتواضعة أمام سادتي العلماء بكلمة " حركة " لما وقر في أذهان البعض من أهل الجيل الحاضر أن التصوف يوحى بالجمود أو التحجر على علوم روحية مضى عهدها فلم يبق منها سوى آثار تتمثل في مزارات أو أضرحة يتبرك بها أوفي كتب صفراء يستعصي على الكثيرين فهمها، أو في تظاهرات دينية تقام في مناسبات معينة أو طارئة أو تتمثل في تلاوة أوراد وأدعية أوأحزاب ألفها مشائخ تكون خاصة بمريدهم أو "حضرات" تصحبها في بعض الأحيان آلات موسيقية يترأسها شيخ أو "مقدمه" الذي ينتمي إلى طريقته أو لما استقر لدى بعض الباحثين من

---

*. محاضرة ألقيت بالمجلس الإسلامي الأعلى.

عناء البحث عن اشتقاق هذه الكلمة هل هي يونانية أو فارسية أم هل هي مشتقة من الصوف أو من الصفاء أم هي مشتقة من أهل الصفة وما إلى ذلك من التخمينات التي لا تهمنا كثيرا في حين نكتفي بإرجاعها إلى العهود الأولى من انتشار الإسلام كما نكتفي بالقول أنه لا يعنينا سوى ربط هذه الحركة بأصولها الأولى التي ترجمتها عمليا وسلوكيا رجال ربما نستطيع أن نطبق عليهم الآية الكريمة ﴿**اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**﴾[1].

ثم إنها حركة ذات امتداد زماني ومكاني لم ينقطع ولن ينقطع حتى انه من الصعب أن نميز بين فترة وأخرى أو بين عهد وعهد سوى من أجل التمييز بين ملابسات أحداث ساوقت هذا النشاط الفكري كما هو الشأن بالنسبة إلى العهد العثماني في الجزائر.

– ذلك في ظروف قاسية عاشتها الجزائر على حين قد دب الوهن فيها من جراء خلافات سياسية أفرزتها حروب الاسترداد التي اتخذت شكل الحروب الصليبية والتي تعدت لتتخذ شكلا توسعيا طال بلدان المغرب الأوسط فأصبح لزاما أن يلتف الشعب حول قادة روحيين أطلق عليهم لقب المرابطين حينا وحينا آخر لقب أولياء الله الصالحين على أنهم قادة وجدوا في نفوس الجزائريين وغير الجزائريين استجابة ملؤها التقديس والتجلة بما أقاموا من رباطات وزوايا لمواجهة الخطر وللدفاع عن الوطن وعن الدين معا ولنشر التعاليم الدينية.

---

1. الشورى، الآية 13.

- هذه التعاليم التي جيء بها من المغرب ومن الأندلس ومن المشرق في نفس الوقت مع النازحين أوالتي ورثوها عن الفاتحين الأوائل.

لكن حين أقول هذا لا أكتمكم خشيتي من أن يخطر على بال عامة الشعب أن الجزائر كانت عشية التواجد العثماني "في حالة انتظارية" من

يفد عليها من النازحين الجدد، ليحملوا إليها تصوف محي الدين بن عربي أو تعاليم أبي الحسن الشاذلي أو للتعريف بسيدي عبد القادر الجيلاني أو غيرهم ذلك لأن الكثير من النازحين منهم من هم من أصل جزائري.

- فغير بعيد إذن أن يتشبع هؤلاء القادة الروحيون بتعاليم الإمام الغزالي من خلال إحياء علوم الدين ومن عوارف المعارف للسهراوردي ومن حكم بن عطاء الله ومن رسالة القشيري ومن غير هؤلاء السادة الصوفية.

- وأقرب إلينا من كل هؤلاء وهؤلاء الشيخ محمد السنوسي وتلميذه أحمد بن يوسف والشيخ سيدي بومدين وسيدي عبد الرحمن الثعالبي والشيخ الفكون الجد وغيرهم كثير.

- وفي البدء كانت الدعوة إلى مواجهة الخطر الزاحف على المغرب الأوسط بتوعية وتعبئة مختلف الطبقات الشعبية يتزعم هذه الدعوة شيوخ الطرق الصوفية في المساجد وفي الزوايا ذلك في حين كان نظام إقامة الرباطات قد بدأ يعرف انتشارا واسعا عبر السواحل وفي الأماكن الاستراتيجية من الوطن وفيها قد تبلور مدى النفوذ الروحي الذي

يتمتع به هؤلاء القادة الروحيون لدى المتطوعة من الطلبة ومن غيرهم من عامة الشعب الأمر الذي يمحو من أذهان بعض المعاصرين صورة المرابط القابع في خلوته.

– فمنذ غداة مجيء الأخوة بربوس إلى الجزائر بدأت تظهر صور البطولة في أمثال الشيخ احمد بن القاضي صاحب جبل كوكو مع صاحبه الشيخ سالم بن التومي قاضي بجاية علما أن الشيخ ابن القاضي المتأبد على سيرته النبوية سيستشهد سنه 933 بثنية بني عائشة.

– ومثلهما الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني الذي لم يأل جهدا في استماتته في مناصرة الأتراك ضد بقايا أمراء بني زيان بنواحي تلمسان.

وتستمر هذه الروح الوطنية المتغذية بالتعاليم الدينية طيلة التواجد العثماني بالقطر الجزائري تتجلى في أبهى صورها البطولية وبخاصة في أثناء الغزو الاسباني الأول على مدينة وهران، فهذه زاوية سيدي محمد بن على ابهلول المجاهد الشهيد تصبح محتشدا للوافدين عليها من القطر كله وخاصة من نواحي شلف ومازونة ومن تنس، أما في الغزو الثاني فتتجلى هذه البطولة في شخصية المرابط العالم الشهير محمد بن علي أبي طالب المازوني إذ يلتحق برباط وهران على رأس مائتي طالب وكان عمره يجاوز الثمانين سنة فذهب إلى معسكر ومنها إلى وهران ماشيا وامتنع من الركوب وترك راحلته للمرضى من طلبته، فأضافه الباي إلى أعضاء قيادة الرباط هذا الرباط الذي أشرف على إدارته وتسييره الباي نفسه خلافا للرباطات الأخرى التي كانت مستقلة عن السلطة التركية كتلك التي دعا إلى

أحيائها الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي الندرومي في أثناء مؤتمر اجتمع فيه رؤساء قبائل انقاد وبني سنوس وترارة ومطغرة وبعض أعيان تلمسان اللاجئين الأواخر إثر الحملة الشرسة التي شنتها الكنيسة الكاثوليكية ضد المسلمين في النصف الأخير من القرن الحادي عشر الهجري.

- ومما هو جدير بالملاحظة أن شيوخنا الجزائريين ما كانوا في دعوتهم إلى المرابطة بالمنغلقين على أنفسهم فقد كانت فكرة الأخوة في الدين تدفع بهم إلى الاتصال بالواردين عليهم من مختلف ممثلي الطرق الصوفية هذا في حالة السلم للأخذ عنهم أو ليأخذوا عنهم وفي حالة الحرب للتحالف بينهم، أكتفى بمثال واحد توفيرا للوقت أو عجزا مني عن الإحاطة بكل ما يدخل في هذا السياق.

- فهذا ابن الأحرش المغربي المدعو بالبدالى وبالشريف قد سمح له بإقامة زاوية ببني فرقان بنواحي جيجل حيث يلتحق به زميله في المرابطة الشيخ ابن الشريف الجزائري لمحاربة حاكم قسنطينة التركي وهنا استسمحكم أن أفتح قوسين حول ما أسمي بالثورات على التواجد العثماني بالجزائر والتي قادها المرابطون في بعض الأحيان وفي بعض الأماكن لأقول إنها ثورات ضد ولاة امتازوا بالغطرسة والجور فلم يراعوا إلاً ولا عهدا مثلما وقع للشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر الذي سيضطر مع ولده هذا لمغادرة مدينة وهران أو مثلما ما وقع للشيخ عبد القادر بن الشريف الدرقاوي الذي سيضطر هو الآخر إلى الالتحاق بموطن أجداده بنواحي افرندة جنوبيّ الجزائر ومثلهما ما وقع لمؤسس الطريقة التجانية الشيخ أحمد

التجاني الذي لم ترق للسلطة تعاليمه فيغادر موطنه إلى الأبد ليتلقاه العاهل المغربي بالتجلة والترحيب ربما لحاجة في نفس يعقوب. ومع كل هذا وذاك فقد كانت السلطة تحاول استغلال هذا النفوذ الروحي في التراعات التي تحدث بين الأفراد والجماعات وحتى بين البلدان المجاورة، أذكر في هذا السياق الشيخ محمد بن علي الخروبي "الدبلوماسي" والمتشبع بتعاليم القادرية والشاذلية وحتى البكداشية وهو الذي تستنجد به السلطة الحاكمة في البلاد لتسوية الخلاف القائم بين المغرب والجزائر في خصوص الحدود بين البلدين.

– ثم إلى جانب هذا النشاط السياسي -إن صح التعبير- أو النشاط الاجتماعي التربوي الذي قامت به المعاهد الدينية نجد من يقومون بالدعاية لطريقتهم الصوفية أو للتعريف بشيوخها داخل البلاد وخارجها كمحمد بن عبد الرحمن الجرجري الذي لا يألوا جهدا في أثناء إقامته الطويلة بالمشرق العربي لنشر تعاليمه وبخاصة في الجزيرة العربية غير مبال بدعوة معاصره محمد بن عبد الوهاب الشهير بإصلاحياته في زعمه وكالشيخ أحمد المقري صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض لم تؤثر فيه دعوة ابن تيمية لعدة أسباب كان آخر هذه الأسباب سوء فهمه لمعنى الاستواء على العرش تلك القطرة التي أفاضت الكأس.

– أما داخل البلد فلقد كانت دعوة كل شيخ طريقة تنطلق من الزاوية الأم لتشمل فروعها المتناثرة على القطر كله وذلك بحيث نجد في بعض الأحيان تجاور ثلاث أو أربع في مدينة واحدة، الأمر الذي يحتم علينا أن نلم

إلمامة وجيزة ببعض زوايا الطرق الصوفية ولو أن كل واحدة منها في حاجة إلى دراسة مستقلة بيد أنه مما يجدر بالإشارة قبل هذه الالمامة الوجيزة أن نقول إن حالة حركة التصوف قبيل دخول العثمانيين الجزائر كانت تبدو عليها سمة الضعف التي أشار إليها كل من الشيخ محمد السنوسي في الناحية الغربية من البلد، والشيخ عبد الكريم الفكون في الناحية الشرقية منه وكلاهما يبدي تأسفه على ما آلت إليه الحياة الروحية فالأول يحاول التوفيق بين علم الشريعة وعلم الحقيقة مندداً " بمن اتخذوا الظاهر عمادا والإنكار في الباطن وسادا والتمشدق والتمخرق مهادا وقد أجمع أهل الباطن على أن الشريعة بلا حقيقة زندقة وكذلك حقيقة بلا شريعة زندقة أيضا ".

– وأما الثاني فنكتفي بإيراد هذه الفقرة حيث يقول فيها : "فلقد رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر وسحائب الجهل قد أظلمت وأسواق العلم قد كسدت فصار الجاهل رئيسا والعالم في مترلة من أجلها يدعى خسيسا وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء وغيرة على جناب السادة الأولياء الصوفية".

– فعلى نور هذه الأضواء أعود إلى ما أشرت إليه من ذكر بعض الطرق الصوفية الشهيرة وعلى رأسها الطريقة الشاذلية بصفة عامة، والطريقة القادرية بصفة أقل درجة فعلى رأس الأولى الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ومعه الشيخ محمد بن علي الخروبي مع هذا الفرق بينهما أن الدعوة اليوسفية قد وجدت هوى في نفوس الشعب أكثرمن دعوة زميله الخروبي.

– ويتوسط العهد العثماني دعوة الشيخ محمد بن علي اهلول الذي وصفه أبو حامد المشرفي بقوله : "كسا علم التصوف طلاوة وبهجة وكانت كراماته أوضح من شمس الضحى" أما الطريقة القادرية فلم تعرف لها زاوية خاصة بها إلا بعد عودة الشيخ مصطفى الغريسي جد الأمير عبد القادر من إحدى حجاته حوالي سنة 1200 وهي التي تعرف بزاوية القيطنة بالقرب من مدينة معسكر والتي ستصبح نموذجا يحتذى به في نشر العلم إلى جانب تلقين الورد كما تصبح محطة للزائرين والغرباء والفقراء.

يلي هاتين الطريقتين الشاذلية والقادرية في الشهرة الطريقة الرحمانية التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري في القرن الثامن عشر والتي لم تشتهر شهرتها الواسعة إلا في القرن التاسع عشر في الجزائر وفي شرقها على الخصوص كما أنها انتشرت في القطر التونسي مع هذه الملاحظة أن أكثر أتباعها ومريديها من الفقراء ومن أهل الأرياف.

– وأشهر منها الطريقة التجانية المشتقة من الطريقة الخلوتية والرحمانية إلا أن مؤسسها الشيخ أحمد التجاني قد صرح فيما بعد أنه لم يقتنع بتعاليم من سبقوه ما دام أصبح سنده الوحيد هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هذا ولقد انتشرت هذه الطريقة انتشارا واسعا حتى وصلت تعاليمها إلى السينيغال فكانت درعا واقيا هناك في مواجهات الحملات التنصرية آنذاك.

وبالإضافة إلى الطريقة الزيانية والطيبية المغربيتي الأصول نختم هذه الإلمامة الوجيزة بذكر طريقة الدرقاوية التي انتشرت انتشارا واسعا في

غرب الجزائر والتي استقطب الكثير من علماء الجزائر وقسنطينة في أعقاب الضعف السياسي للحكم العثماني المشرف على نهايته في القطر الجزائري. كما نختمها بهذه الملاحظة أن السلطة العثمانية كانت تقيم زوايا خاصة بأبناء الكراغلة دون غيرهم وأنها أحدثت ما يسمى بنقابة الأشراف مهمتها التنقيب عن أصول كل راغب في إثبات شرف أجداده وذلك عن طريق تحرير وثيقة رسمية كانت ولا تزال تحمل اسم "الشجرة".

يستخلص مما ذكرنا من تنوع هذه الطرق أن أصحابها يمكن أن نقول فيهم إنهم أمام ذلك الفراغ الثقافي السائد آنذاك في المشرق وفي المغرب قد عرفوا كيف يملأونه بتعاليم دينية وصوفية كل حسب مستواه العلمي ومحيطه الجغرافي حتى كأن البعض منهم يبدو وقد درس علم النفس التربوي قبل أوانه، هذا ما يذكرنا قولة الشيخ أحمد بن يوسف السنوسي في رده على أحد منتقديه : " إن الجيلاني كان في القرن السادس والزمان غير فاسد، أما نحن فإنا في القرن العاشر الذي هو ملئ بالفساد وانحطاط الأخلاق" كما يحكى أنه رد على من قال له : " أهنت الحكمة بتلقينك الأسماء للعامة حتى النساء فكان الرد : " دعونا الخلق فأبوا فقنعنا منهم أن نشغل جوارحهم بالذكر".

ومع ذلك وبسببه أيضا لم تخل هذه الحركة من نشاط فكري في هذا الباب ولو أنه نشاط ينقصه روح الإبداع إلا قليلا يتجلى ذلك في دراسة التصوف من خلال أعمال سابقة تتمثل في شروح لمتون ورسائل أو قصائد أو أراجيز، قد يشرحها صاحبها بنفسه أو ينيب عنه من يقوم

بشرحها وهي في غالب الأحيان كثيرة والاستطرادات محشوة بذكر الصالحين ومنمقة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وحكم مقتبسة من كلام السابقين من أهل التصوف.

كما أن هذه الروح الصوفية تتغلغل داخل مؤلفات تبدو لأول وهلة خارجة عن موضوع التصوف كما نرى ذلك عند الشيخ عبد الرحمن الأخضري في تأليفه"السلم"في المنطق حين يحاول التوفيق بين الشيعة والحقيقة أو بين علم الظاهر والباطن، الأمر الذي يذكرنا حتما الفيلسوف الكبير ابن رشد في كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ومثله الشيخ السنوسي صاحب التآليف في العقيدة نراه يدافع فيها عن الجانب الصوفي.

وشبيه بهذا وذلك الشيخ ابن عزوز التلمساني الذي لا يكتفي في تدريسه الفقه بدون الدعوة إلى الجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن مندداً في نفس الوقت بالبدع والمحدثات التي رآها في زمانه" لا حد لها " وغيرهم كثير.

إن هذا التغلغل نجده حتى فيما يسمى بالرحلات كما فعل ذلك الشيخ الورتلاني حيث يمزج إشارات صوفية برواية أحداث شاهدها أو أخبر عنها. هذا ما يؤدي بنا إلى ذكر أبواب من أنواع التآليف آنذاك ومنها ما يعرف بالمناقب، وأول تأليف في ذلك ولهذه الفترة بالذات كتاب (بستان الأزهار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار) لمحمد الصباغ القلعي، والذي سيصبح هو الآخر موضوع تلخيص من طرف المعجبين بالشيخ.

هناك من لم يكتف بذكر مناقب شيخ واحد بل بذكر جماعة من الأولياء والصالحين، كما فعل ابن مريم في كتابه الشهير (البستان في علماء وأولياء تلمسان) وهو إلى كونه مشحونا بذكر الكرامات إلا انه لا يخلو من شيء لا بأس به مما يشبه حديث خرافة.

وهناك تآليف أخرى خصصت لذكر أولياء ناحية معينة من القطر دون غيرها، كما فعل الشيخ محمد المغوفل في ذكره لمن سكنوا البطحاء -بين مازونة وقلعة بني راشد- أذكرمن هؤلاء سيدي موسى بوعمران والشيخ السعدي.

كما قام بهذا النوع من التأليف الشيخ البوني بالنسبة إلى علماء وصلحاء عنابة والشيخ عبد الرحمن التجاني بالنسبة إلى من اشتهر من أشراف من سكنوا ناحية غريس.

إلى جانب هذه التآليف بل على رأسها نجد الشعر الصوفي يحتل مكانة مرموقة وبالأخص فيما يتعلق بمدح الرسول الأعظم صلىالله عليه وسلم ومدح الصحابة والأولياء وبالحنين إلىالبقاع المقدسة وبالمواعظ والتوسل وأنواع الاستغاثات التي لا تزال تردد إلى يومنا هذا في الزوايا وداخل بعض المساجد وفي أثناء " الحضرات".

- وبعد، فهل تراني وفيت هذا الموضوع حقه ؟ طبعا لا يمكن ذلك وإنما أردت من خلال هذه المداخلة المتواضعة أمام سادتي العلماء أن أحاول على قدر الإمكانيات المتاحة إزاحة جانب من ستار مسدول عن جهل أو عن قصد في بعض الظروف أو عن روح اللامبالاة على

حركة كهذه هي جديرة بأن تعتبر قاعدة صلبة لإرساء مكونات الأصالة الجزائرية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

مصادر البحث

– الدكتور أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي

– أحمد سحنون الراشدي – الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني

– الورتلاني – الرحلة

– ابن حمادوش– الرحلة

– ابن ميمون الجزائري. التحفة المرضية في الدولة البكداشية

- Histoire de l'Algérie contemporaine - C.R. AGERON.